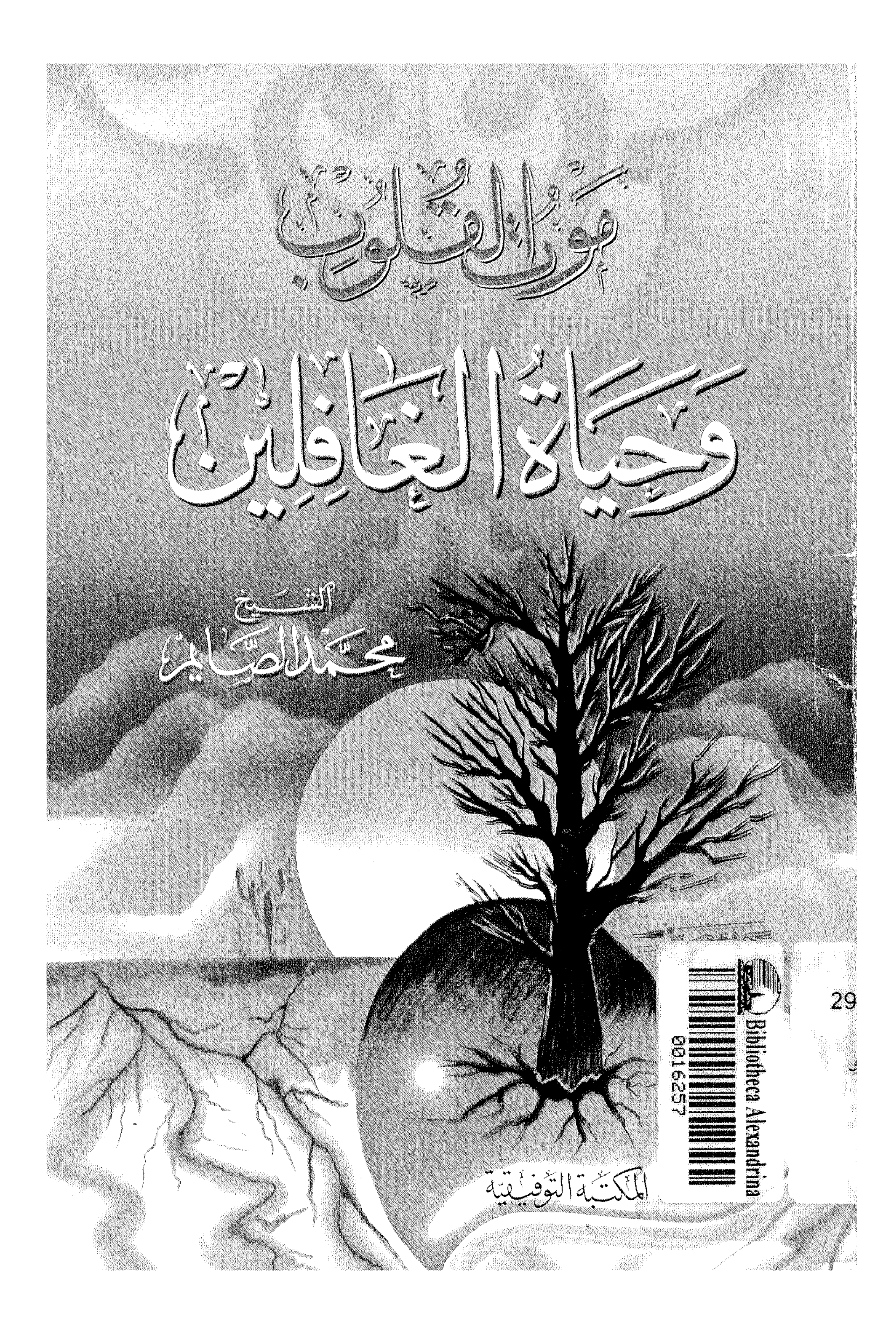
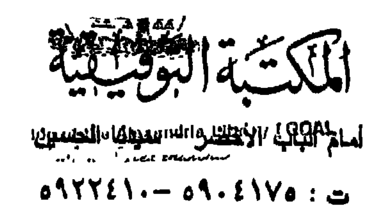

موت القلوب
وحياة الغافلين
الشيخ
محمد الصايم
المكتبة التوفيقية
Bibliotheca Alexandrina
0016257
29

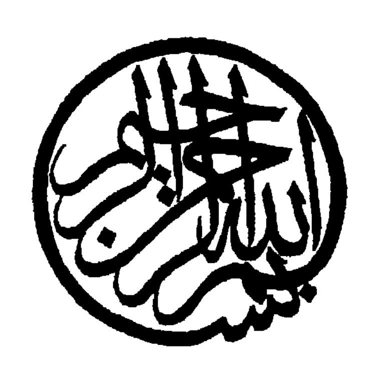


محمد الصايم

موت القلوب وحياة الغافلين







﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾

[الإسراء : ٤٦]

قال رسول الله ﷺ :

« ألا إن في الجسد مُضغة إذا صلحت صَلُحَ الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .

[رواه البخاري ومسلم عن أبي عبد الله النعمان بن بشير]



مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، مقلب القلوب ومغير الأحول بيده مقاليد الأمور . وأمره على كل شيء غالب .

ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين الذى أحيا القلوب بدعوته وأضاء الأفئدة بسنته . سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين . .

وبعد

فقد نظرت متأملاً أحوال بنى البشر فوجدتهم يعيشون فى غفلة ، تجرفهم الأحداث وتستولى عليهم الأهواء ، ينغمسون فى ملذاتهم ، تمر بهم الأيام وتنتهى منهم الأعمار وهم فى غفلة سوادها غَلّفَ القلوب . . . فأصبحوا يعيشون بأجسادهم وقلوبهم في موات . إلا منْ رحم الله .

إن البعض لَيَصنع الذنب مُستهينًا به غير مبالٍ بما يترتب عليه فى الدنيا من ضنك وفى الآخرة من عتاب ، نرى الناس يهربون من حرارة الشمس إلى ظل يأويهم ولا يتذكرون نار جهنم ومنْ منها يأويهم ؟ ﴿ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ (١) ؟

من أجل أصحاب القلوب التي ران عليها عفن الذنوب . فأصبحت حيّة ميتة . لا تدرك العواقب ولا تخشى خالقها ـ من أجل هؤلاء ـ أكتب اليوم كتابى هذا حتى يفيق هؤلاء من غفلتهم ويعلمون أن وعد الله حق . وذلك قبل فوات الأوان ـ القلب ملك فإن فسد الملك فماذا تفعل الرعية ؟

---

(١) القيامة : ١٠ .

أيها الغافلون ـ يا أصحاب القلوب الميتة ـ توبوا إلى الله فالحياة فرصة لكم فى الرجوع إلى ربكم من قبل أن يأتى ملك الموت : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴾ (١) .

ـ كتابنا تنبيه للغافلين وإيقاظٌ للنائمين وتذكيرٌ للناسين . . ألا فليتوبوا لعل الله يتوب عليهم فرحمته وسعت كل شيء وهو أرحم بالعبد من أمه وأبيه . . . ولذا يقول الحق سبحانه لعباده : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

والآن مع كتابنا « موت القلوب » نعيش فى صفحات نقدمها للقراء سائلين الله أن ينفعنا جميعًا بالعلم ومصاحبة العلماء .

هذا وبالله التوفيق

محمد أحمد محمد على الصايم

شهرته / محمد الصايم

---

(١) المؤمنون : ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٢) الزمر : ٥٣ .

القلب

أصله ـــ و معناه

القلب

سبحان الله . . إنها قطعة من اللحم فى جسد الإنسان هى الملك وبقية الأعضاء وزراء . من القلب تصدر الأوامر وإليه تنتهي الأمور . . يتأثر بالفكر وقد يكون هو محل الفكر . . يدق مرهفًا بين الخوف والرعب ــ ويدق خافقًا من الهم والحزن . . ويدق مرفرفًا بالحب والبهجة والسعادة . . إنه القلب .

يقول البعض إنه من كثرة تقلبه سُمى بالقلب . أو لأنه في لب الصدور فهو قلب . أو لأنه مركز الأوامر والتصديق أو التكذيب فهو قلب . .

وجاء فى تعريف لغوى للقلب : أنه مضغة من الفؤاد مُعلقة بالنّياط . . وقيل القلب هو الفؤاد (١) . . ويقول الشاعر :

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جُعل اللسانُ عن الفؤاد دليلاً

ويُعبر شاعر آخر عن القلب فيقول :

واتق الله فتقوى الله مــا جاورت قلب امرىء إلا وصل

ليس منْ يقطع طرقًا بطلاً إنما مَنْ يــتق الله البــطل

*** القلب وعاء :**

القلب وعاءُ للحب . . وهو وعاء للكراهية ووعاء للصدق . . فجاء في تعريف الإيمان : أنه ما نطق به اللسان وصدقه القلب وعملت به الجوارح . .

---

(١) انظر لسان العرب ــ لابن منظور ــ باب القاف مع اللام .

وهو وعاء الكذب . فالمنافق قلبه كذّاب لأن ما به ليس هو ظاهره . . . وذلك كما قال أحد دُهاة السياسة العربية : إنّا لنضحك فى وجوه أقوامٍ وقلوبنا تلعنهم.

* والقلب وعاء التقوى : لقوله تعالى :

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾(١) وذلك لأن الإيمان فى القلب يُغذى بالتقوى ويضعف بالفجور والمعصية .

* والقلب وعاء لذكر الله : لأن الذكر باللسان لا قيمة له إن لم يرتبط بالفؤاد . يقول الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (٢) ويقول رسول الله ﷺ : « القلب الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب »

* والقلب ـ أيضًا ـ وعاءٌ للاطمئنان:

حيث يُنزل الله فيه سكينته ويشمله برحمته . فيكون بذلك فى كنف رعايته . يقول الله عز وجل :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ (٣) .

* والقلب كذلك عند أصحاب الأهواء وعاء للزيغ : ـ نعوذ بالله من ذلك ـ والزيغ معناه عدم الثبات على اليقين والانحراف إلى طريق الضالين ـ ولذا كان الدعاء من الصالحين : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (٤) وصاحب القلب الثابت يقول :

---

(١) البقرة : ١٩٧ .

(٢) الرعد : ٢٨ .

(٣) الأنفال : ١٠.

(٤) آل عمران : ٨ .

رضيت بالله فى عسرى وفى يسرى فلست أسلك إلا أوضح الطرق

* وقيل للحسن : يا أبا سعيد . . . كيف نصنع ؟نجالس أقوامًا يخوفوننا حتى تطير قلوبنا . . . فقال :

والله إنك إن تخالط أقوامًا يخوفونك حتى يدركك أمن ، خيرٌ لك من أن تصحب أقوامًا يؤمنونك حتى يدركك خوف .

* القلوب القاسية :

إنها قلوب لا تتمتع بالإيمان ولا تذعن للقرآن ولا تذكر الرحمن ـ مُلئت بالذنوب ظلامًا فأصبحت كالحديد أو الحجارة قسوة . . لا مكان للرحمة فيها ـ ولا تستوعب الحنان ولا يصدر منها إلا الخسران .

يقول الله عز وجل :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (١) .

وقوله تعالى :

﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾(٢) .

إنها قلوب الغافلين وأفئدة الظالمين . الذين لا يرون إلا أنفسهم ولا يحسون بآلام غيرهم ولا يدركون معنى الرحمة وليس لديهم إحساس بالشفقة . . ظلموا أنفسهم ولم يظلمهم أحد ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

* * *

* *

---

(١) البقرة : ٧٤ .

(٢) الحديد : ١٦ .

القلبُ

مَلِكُ الأعضاء

* * *

وهذا القلب الذي ينبض بين جنبيك مسكنه الصدر وهو لبُّه ، بل هو كسواد العين داخل العين فالصدر شُبه ببياض العين والقلب كسوادها . وهو محل نور الإيمان وخشوع التقوى ودفء المحبة وفيه يتحرك الخوف والرجاء . ومنه ينطلق الدُعاء . . وليس للصبر مكان إلا القلب . والقناعة لا تسكن إلا فيه . وهو بئر العلم ومدخل الفكر . فيه السرائر وتنعقد بداخله النية . . يقول رسول الله ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوي** » (١) . ومن هنا نعرف أن عمل الإنسان يرتفع قدراً أو ينخفض بمقدار ما يحمله القلب من صدقٍ أو كذب أو شك . . فالقلب هو الملك والنفس بذاتها وأعضائها هى المملكة . . وذلك مصداقًا لقوله ﷺ : « **واليد جناح ، والرجلان بريد ، والعينان مصلحة ، والأذنان قمع ، والكبد رحمة ، والطحال ضحكة ، والكليتان مكر ، والرئة نفس ، فإذا صلح الملك صلحت جنوده ، وإذا فسد الملكَ فسدت جنوده** » (٢) .

ومن هنا يتضح أن صلاح الجوارح بصلاح القلب وفسادها بفساد القلب . . ولذلك فإن أى عملٍ من أفعال الإنسان يصدر من النفس بدون عقد النية فى القلب ــ فلا قيمة لهذا الفعل ــ يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ **لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ (٣) .

---

(١) صحيح البخاري .

(٢) كنز العمال ــ فى سنن الأقوال والأفعال .

(٣) البقرة : ٢٢٥ .

ونحن حينـما نقول إن القلب ملك الأعـضاء وهو ـ أيضًا ـ سـيدها ، ذلك لأنه أرقاها وأفـضلها وله عند الله مـكانة . فالقلب بما فـيه من رحمـة الفؤاد . سوف يُسأل عنه الإنسان ـ لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (١) .

ونظر القلب هو نظر البصيرة . فـبقدر إيمان المرء تكون قوة الإبصار الروحي ـ والشفافية ـ يقول الله عز وجل :

﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (٢) .

ويقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ (٣) .

وقوله سبحانه :

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٤) .

المقصود بالصدر فى الآيتين : القلب . وإن كان الخطاب لأصحاب القلوب الميتة التى خلت من نور الهدى . . ويقول رسول الله ﷺ :

« إن الله عز وجل تجاوز عن أمتى ما حدثت به نفسها » (٥) .

ويقول ﷺ :

« نعوذ بالله من منافق عليم اللسان جهول القلب » (٦) .

وقال حكيم : « إن القلب إذا قسى لا يبالى إذا أساء » .

---

(١) الإسراء : ٣٦ . (٢) الحج : ٤٦ .
(٣) آل عمران : ٢٩ . (٤) القصص : ٦٩ .
(٥) معجم الحديث المفهرس جـ ١ ص ٤٠١ .
(٦) كنز العمال : جـ ١ رقم ٣٦٣٣ .

كيف تموت القلوب ؟

حياة القلب علمٌ فاغتنمه ... وموت القلب جهل فاجتنبه

وخير الزاد تقوى فادخره ... كفاك الوعظ هذا فاتبعه



الشيطان يسيطر على القلب

إن سيطرة الشـيطان على قلب الإنسان هو أولى مراحـل موت هذا القلب . لأن الشيطان يدخل القلـب من مداخل الضعف كالشهـوة والطبع والغفلة . ثم يحركه حسب هواه ويأمره بكل الرذائل ـ يقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (١) .

وذلك نجد أن أول مظاهر سيطرة الشيطان على قلب الإنسان هى :

* النسيان :

فجأة يتخبط القلب لا يدرى ما صنع أمس ، بل قد ينسى أهم أمور حياته ثم يتطور الأمر بأن ينسى ذكر الله . وينسى أداء الفرائض وبذلك يعيش لا يدرى ما له من حقوق وما عليه من واجبات . . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٢) .

وقوله عز وجل :

﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

---

(١) النور : ٢١ .

(٢) المجادلة : ٦٨ .

(٣) الأنعام : ٦٨ .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ (١) .

والنسيان مرض لعين يسببه الشيطان . وعلاجه إنما يكون بذكر الله ــ ومدافعة أهواء الشيطان عن القلب ــ لأن القلب الذاكر لا مكان للشيطان فيه .

* الخوف من الفقر :

لا شك أن الخوف من رزق غد ضعف فى إيمان القلب. لأن الله أخبر الخلق أنه خلقهم وضمن لهم رزقهم . يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (٢) .

والذين يخافون الفقر يعيشون فى اضطراب نفسى يدفعهم إلى البحث عن المال ولو كان بطريق الحرام . لأنه يخاف من الفقر . مع أن الله سبحانه طمأن الإنسان على أولاده الضعفاء الذين يتخذهم الإنسان حجة فى نهبه للأرزاق المحرمة . . يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ (٣) .

يأتى الشيطان للإنسان عندما يريد القلب أن يتصدق أو يُكرم ضيفًا أو يتبرع لمشروع خير فيقول ــ الشيطان ــ له لا تدفع حتى لا يذهب مالك وتصبح فقيراً مثل فلان وفلان ــ لا تتعاون فماذا يعود عليك ؟ وهكذا ــ حتى يسيطر على على القلب من باب الفقر . . . يقول ربنا سبحانه :

---

(١) يوسف : ٤٢ .

(٢) هود : ٦

(٣) النساء : ٩ .

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١)

. . . يا قلوب الغـافلين ! انتبـهوا لمكايد الشـياطين حتى لا تمـوت قلوبكم فتعيشوا فى الدنيا أغبياء .

*** تمنى الخُلد :**

الإنسان يحب الدنيا . ويحب المال والقلب يعـشق الجمال. . وللشيطان إلى القلب من ذلك مدخلاً ليسيطر عليه ويجعله غافلاً حتى يموت فيصبح علقة تضخ الدم فقط ــ لا شعور ولا نور ولا رحمة . كل همه أن ينسى الموت ويمنى نفسه بالخُلد الأبدى ــ وتمنـى الخُلد نزعة لدي الإنسان يسـتغلها الشـيطان . من بداية خلق آدم إلى الآن .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ ﴾(٢)

. . . وأكل آدم من الشجرة وعصى الله . ولكن الله تـاب عليه ورحمه ومازال تمنى القلب للخلود مدخل للشيطان ينزغ منه ليشغل الإنسان عن ذكر ربه ــ أفق أيها الإنسان ولا يضحك عليك الشيطان . . . . فقد ذكرنا الله بأن الدنيا دار فناء يقول عز وجل :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ (٣) .

ويكفي موعظة للقلوب في عدم نسيانهـا الفناء أن الله عزّى نبيه ﷺ فى نفسه وهو على وجه الدنيا ــ تذكيراً له ومـوعظة لمن بعده ـ حتى نغلق باب الخلد فى قلوبنا ونهزم شيطاننا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ٢٦٨ .
(٢) طه : ١٢٠ .
(٣) الرحمن : ٢٦ ــ ٢٧ .
(٤) الأنبياء : ٣٤ .

القلب وسلطان الهوى

إن من عوامل موت القلوب أن تترك لهواك العنان يسيطر على قلبك فيجنح بك هنا وهناك ويرديك فى المهلكات .... فكن حذراً من فوضى التصرفات واعلم أنك مُحاسب على أفعالك .. وتأمل قول المولى عز وجل :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾[1] . والمقصود بالنفس هنا القلب ـ لأن منْ خاف ربه وَجَلَ قلبه وخشعت جوارحه وظهر نور الإيمان فى وجهه . وأنزل الله عليه سكينته و شمله برحمته وأسكنه جنته .

* أما الهوى ـ فإنما سُمى بذلك لأنه يهوى بالقلب فى الدنيا إلى منحدرات الرذائل وفى الآخرة إلى سحيق جهنم ـ والهوى كمين لا يؤمن فاحذر هواك . فإنه يحثك على نيل الشهوات عاجلاً وإن كان يسبب أعظم الآلام والندم آجلاً .. مع أن إطاعة الهوى لها فى الدنيا عواقب قبل عواقب الآخرة ... والهوى يعمى القلوب عن المروءة والدين والرأى الرشيد .

أخى ـ صاحب القلب السليم ـ اعلم أنك لم تخلق للهوى ـ إنما هيأك الله لأمر عظيم ـ سعادة طاعته ـ ولن تنال ذلك إلا إذا خالف قلبك هواك !

واستمع إلى قول الشاعر :

قد هيّؤوك لأمرٍ لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهَمَل

فاختر لنفسك أيها المؤمن أترضى أن تكون مع الحيوانات ترتع أم على طريق

---

(١) النازعات : ٤٠ ـ ٤١ .

الأولياء تسعد . . لأن الشيطان إذا وجد القلب إلى الهوى يميل سارع إليه يشجعه وللشر يدفعه وإلى الرذائل يسوقه حتى يمرض القلب . فيميل ويطمع لكل رذيلة .

﴿ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ (١) .

وطالما أن الهوي يُمرض ـ فإن المرض بداية موت القلوب الغافلة . فاحذر أن تجعل هواك قائدك فينزل بك إلى دركات السافلين . . يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ (٢) وقد حذر الله عز وجل فى أكثر من موضع فى آيات الذكر الحكيم من اتباع الهوى أو مصاحبة أهل الهوى . . . يقول عزوجل :

﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ (٣) .

وقد أوضح رسول الله ﷺ أن اتباع الهوى من المهلكات فقال :

« ثلاث منجيات ، وثلاث مهلكات : فأما المنجيات فتقوى الله عز وجل فى السر والعلانية ، والقول بالحق في الرضا والسخط ، والقصد فى الغنى والفقر . وأما المهلكات فهوى مُتبعٌ وشحٌ مُطاع ، وإعجاب المرء بنفسه » (٤) .

ويقول أحد الحكماء :

« إن شئت أخبرتك بدائك ، وإن شئت أخبرتك بدوائك ، داؤك هواك ، ودواؤك ترك هواك ومخالفته» .

---

(١) الأحزاب : ٣٢ .

(٢) الأعراف : ١٧٦ .

(٣) الكهف : ٢٨ .

(٤) رواه البزار وأبو نعيم فى الحلية .

وقال بشر الحافى : رحمه الله تعالى :

« البلاء كله فى هواك ، والشفاء كله فى مخالفتك إياه » .

وقال رجل للحسن البصرى رحمه الله تعالى : يا أبا سعيد أى الجهاد أفضل؟ قال : جهاد هواك .

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى : « جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين » .

* * *

الكبرُ يَقتلُ القُلوب

الكبر : معناه بطر نعم الله والتعـالى على أوامره . . . وقد يكون الكبر على المخلوق . بأن يفـخر الإنسان على غـيره . ويستعـمل « الأنا » التى استعـملها إبليس لعنة الله عليه وأخرجتـه من الجنة إلى النار . ومن رحمة الله إلى سخطه وغضبه . . . وقد هـدم الإسلام بمعول التقوى ما كان الناس يتـفاخرون به على بعضهم ويتعالون فقال الله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (1) .

ويخرج رسـول الله ﷺ من داره فيـجد بعض الناس قـد ارتفعت أصـواتهم يتفاخرون فيما بينهم ويتعالى بعضهم على بعض . هذا يقول أنا من بنى فلان . وهذا يقول : وأنا من بنى فلان . . فقال لهم رسول الله ﷺ :

« كلـكم لآدم وآدم مـن تراب » ثم يذكـرهم بقـول الله عـز وجل : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ والكبر مرض لعين يصيب القـلوب فيهلكها . ويكفى الكبر لعنة أنه أكبر باب فى القلـب يؤدى إلى الكفر . . وهل كفر إبليس إلا به ؟ وهل كفر فرعون إلا به ؟ وهل كفر النمرود إلا به ؟ وهل كفر قارون إلا به ؟ . . . ومـازال إبليس ـ لـعنه الله ـ يـسعـى فى الناس حـتى يـزرع فى قلوبـهم الإعجاب بالنفس ثم ينتقل بهم إلى الكبر ـ فإذا سكن الكبر القلب . فاعلم أن الأمـر أصبح خطـرًا . بل كان الـكفر إلى الـقلب أسـرع . ويكفى أن الكبـر والسجود لا يجتمعان في قلب عـبدٍ مؤمن . ذلك لأن الكبر من مضمونه الإباء

---

(1) الحجرات : ١٣ .

والرفض ، والبطر . أما السجود فلا يكون إلا بالتواضع وخشوع القلب لأنه لا معنى للسجود إن لم يسجد القلب قبل سجود الجوارح . . . وقد اجتمع التواضع بمعنى الدعاء والخشوع فى مقابل الرفض الذى هو الكبر المؤدى إلى الكفر فى قوله تعالى :

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (١) .

ويقول الله عز وجل :

﴿ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٢) .

﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٣) .

﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (٤) .

* * *

---

(١) غافر : ٦٠ .

(٢) النحل : ٢٩ .

(٣) الزمر : ٦٠ .

(٤) الزمر : ٧٢ .

قلوب المتكبرين

إنها قلوب حادت عن الطريق المستقيم وأنساها الشيطان ذكر الله ـ ثم دفعها إلى ارتكاب المعاصي ثم مناها البقاء والخلد . . ثم أدخل إليها العُجب ثم أورثها الكبر . . وهذه القلوب بذلك قد سقطت فى الحضيض وأصبحت من الخاسرين . . وأصحابها يعيشون على عيونهم غشاوة وعلى قلوبهم ران يمنعهم من رؤية الحق أو مشاهدة الحقيقة . . ويظلون هكذا حتى يأتيهم ـ ملك الموت ـ هازم اللذات وقابض الأرواح . وقتها فقط يُصابوا بالذل والهوان ويدركون سوء المصير . لقد فات الأوان . . وجاء الوقت الذى تصير فيه أجسادهم ترابًا . وتهوى أرواحهم فى سحيق جهنم .

* القلوب التي لا تذعن لأوامر الله . . وتسعى بالفساد فى أرض الله ، ولا تتفكر فى آياته ولا تتدبر فى نعمائه قلوب لا رحمة فيها . مغرورةٌ بشهواتها، مصروفة عن آيات الله . . وقد ذم الله عز وجل هذه القلوب فى قوله تعالى:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (١) إنها قلوب طبع الله عليها . لم تعد ترى نور الهداية فهى متكبرةٌ متجبرةٌ عنيدةٌ خائبة . . يقول الله عز وجل فيها :

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (٢) .

ويقول عز وجل :

---

(١) الأعراف : ١٤٦ .

(٢) غافر : ٣٥ .

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (١) .

وقوله عز وجل :

﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ (٢) .

وهذا رسول الله ﷺ يحذر القلوب وينذر النفوس من العواقب الوخيمة للكبر ـ فيقول ﷺ :

« لا يدخل الجنة منْ كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر . ولا يدخل النار منْ كان فى قلبه مثقال حبة من خردل إيمان » (٣) .. وانظر معى أخى القارئ ـ إلى مصير المتكبرين . . يقول الله عز وجل فى الحديث القدسى الجليل ـ قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى واحداً منهما ألقيته فى جهنم ولا أبالى » (٤) .

وقال ﷺ :

« تحاجت الجنة والنار . فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس . وسقاطهم وعجزتهم ؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذابى أعذب بك من أشاء ولكل منكما ملؤها » (٥) .

ويقول ﷺ :

« إن أحبكم إلينا وأقربكم منا فى الآخرة أحاسنكم أخلاقًا . وإن أبغضكم

---

(١) إبراهيم : ١٥ .

(٢) الفرقان : ٢١ .

(٣) أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

(٤) أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجة .

(٥) متفق عليه من حديث أبى هريرة .

إلينا وأبعدكم منا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » قالوا : يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون . فما المتفيهقون ؟ قال : المتكبرون »[1] . فالحذر كل الحذر من أن يدخل الكبر إلى القلوب . فقد كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الكبر فيقول: « اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء »[2] .

وقال محمد بن الحسين بن علي : « ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر قط إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر . . وسُئل سليمان عليه السلام عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة فقال : الكبر . . وما دام الكبر يُغضب الله ويهلك القلوب . فإن التواضع يرضى الله ويحيى القلوب .

ويقول رسول الله ﷺ :

« التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله »[3] . . ويقول ـ أيضًا ـ ﷺ :

« أربع لا يعطيهم الله إلا منْ أحب: الصمت وهو أول العبادة ، والتوكل علي الله ، والتواضع والزهد فى الدنيا »[4] .

وكلما تواضع القلب حلّ فيه نور الإيمان وطرد منه وسوسة الشيطان . ورفع الله شأن صاحبه وبارك فى أعماله .

---

(١) أخرجه أحمد .

(٢) هذا الحديث رواه أبو داود والترمذى بلفظ مختلف .

(٣) الحديث ورد فى الترغيب والترهيب.

(٤) أخرجه الطبرانى والحاكم .

الرياءُ مرضٌ فتّاك

إن الرياء مرض يتسلل إلى نفوس الضعفاء يميل بهم إلى حب المظاهر وطلب الفخر على الناس والتباهى بصالح الأعمال . وذلك لا شك يُفسد نية القلب ويبطل ثواب العبادة .

والرياء هو : طلب ثناء الناس وحُبِ مديحهم بإرائتهم الخصال الحميدة والمظاهر الطيبة . وفى هذه الحالة لا تكون العبادة خالصة لوجه الله والله عز وجل يقول :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (١)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾(٢).

وكان رسول الله ﷺ جالسًا يومًا فقال له رجل : يا رسول الله أقف الموقف أبتغى به الله عز وجل وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه حتى نزلت هذه الآية التى سبق ذكرها الآن .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : تعوذوا بالله من جُب الحزن . قالوا: يا رسول الله وما جبُ الحزن ؟ قال : وادٍ فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة . قيل : يا رسول الله . ومن يدخله ؟ قال : القراء المراءون بأعمالهم (٣) .

---

(١) البينة : ٥ .

(٢) الكهف : ١١٠.

(٣) رواه ابن ماجة .

وكم من أنـاس ماتت قـلوبهم بحـب الرياء وغلب عـلي عبـادتهم المـظاهر وأفئدتهم هواء والرياء يعلم الكذب والكذب يدفع إلى النفاق .

* وعن شداد بن أوس . أنه بكى فقيل له : ما يبكيك ؟

شيئًا سمعتُ من رسول الله ﷺ يقول : « فذكرته فأبكانى . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية** » قال : قلت : يا رسول الله : أتشرك أمـتك من بعدك قال : « **نعم ، أما إنهم لا يعبـدون شمسًا ولاقمـرًا ولا حجرًا ولا وثنًا ولكن يراءون بـأعمالهم والشـهوة الخفيـة أن يصبح أحدهم صائمًا فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه** » .

وإذا كان الـرياء فى القلوب يدفـع إلى ثناء الدنيـا ومديح أهلهـا فهـو بذلك يجلب على صاحبه حب الدنيا . وقد قال رسول الله ﷺ :

« **حبُ الدنيا رأس كل خطيئة** » [1] .

أخا الإسـلام ــ إياك إياك والرياء . فثوب الـرياء مَن اكتسى به كـأنه عارٍ . والرياء ممحقة للبركة مضيعة للثواب .

*** الرياء سلوك مذموم :**

وإذا كان الرياء يدخل إلى القلوب فـيصيبها بمرض الشرك الأصغـر ويخرجها من التـوحيد الخالـص. فإنه بذلك يقـتل القلوب . وينعكس ذلـك على سلوك العبد. فيصبح مذمومًا فى نيته وسلوكه. وقد ذم الله عز وجل أهل الرياء فقال:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧ ﴾ [2] .

---

(١) رواه البيهقى فى الشُعب بإسناد حسن إلى الحسن البصرى.

(٢) الماعون : ٤ ــ ٧ .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ (١) .

وقد سأل رجلٌ النبى ﷺ : فقال : يا رسـول الله فيم النجاة ؟ فقال : « أن **لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس** » .

وقال ﷺ : « **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** » قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : « **الرياء** » (٢) .

وإذا كان الرياء يفتك بالقـلوب فى الدنيا فإن صاحبه يأتى يوم القـيامة مع ما معه مـن عمل ــ فهو مـفلس يقول الله عز وجل يوم الـقيامة إذا جازى الـعباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تـراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ؟ » .

وقال ﷺ : يقول الله عز وجل: « **منْ عمل لى عملاً أشرك فيه غيرى فهو له كله وأنا منه برئ وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك** » (٣) .

ويروى أن عمـر بن الخطاب ــ رضى الله عنـه ــ رأى شابًا يمشى وقـد طأطأ رأسه . فقال له : ارفع رأسك يا هذا إنما الخشوع فى القلوب .

وقد ذكر الإمام على ــ كرم الله وجهه ــ أن للمرائى ثلاث علامات :

« يكسل إذا كـان وحده . وينشط إذا كـان فى الناس . ويزيد فى الـعمل إذا أثنى عليه وينقص إذا ذم » .

ويسأل رجلٌ الإمام سعيد بن المسيب فيقول :

إن أحدنا يـصطنع المعروف يُـحب أن يُحمـد ويؤجر ، فقـال له : أتحب أن تمقت ؟ قال : لا . قال : إذا عملت لله عملا فأخلصه .

فإياك والرياء فإنه مرض فتاك .

---

(١) فاطر : ١٠ .　　(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب .

(٣) أخرجه مالك ، ومسلم مع تقديم وتأخير .

الحسدُ يأكل القلوب

من أشد وأفظع الأمراض التى تُصيب القلوب فتمرضهـا وتسيطر عليها فتقتلها «الحسد».

وقد كثر تعـوذ النبى ﷺ من الحسد حتى فى دعاء الصـباح والمساء . والذى جاء فيه : « رب أعوذ بك من العجزوالكسل والحقـد والحسد وغلبة الدّين وقهر الرجال » ... وأكثر من ذلك أنه ﷺ كان يَعلم أهله التـعوذ من الحسد والتحصن ضد عين الحـسود . . وكان النبى ﷺ يـتعوذ بالكلـمات التامات حـتى نزلت سورة « الفلق » وسور « الناس » فأصبح يتعوذ بها صباحًا ومساءً :

بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ قُلْ أَعُـوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِن شَرِّ الْوَسْـوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥ ﴾[1] .

واعلم أن الحسد مرضٌ لعين يتسرب إلـى صدور ضعاف النفوس. فإذا تمكن منها قل إيمانهـا وسيطر عليها حتى أنـساها ذكر الله وشغلها بنعـم الله علي الغير التى يتمنى الحسود أن تزول عن صاحبها .

وقد مقت رسـول الله ﷺ الحقد والحسد والبـخل . عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ :

« ثلاث منـجيـات وثلاث مهـلكات . فأمـا المنجيـات فـتـقوى الله فى السر والعلانية . والقـول بالحق في الرضا والسخط ، والقصد فى الغـنى والفقر . وأما المهلكات فهوى متبع وشحٌ مطاع وإعجاب المرء بنفسه وهو أشدهن » .

وقال ﷺ :

« إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

وعن الزبير ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال :

---

(١) سورة الناس

« دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء هى الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » (١) .

أخى القارئ تعالى معى لتعرف الأثر السيىء للحسد على القلب . وأن أهل الحسد أعداء لنعم الله وفضله . . يروى الطبرانى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ عن النبى ﷺ قال : « إن لنعم الله تعالى أعداء . قيل منْ أولئك قال: الذين يحسدون على ما آتاهم من فضله » .

إن القلب الحسود قلب مريض بل هوقلب ميت لا يعترف بفضل الله ولا يقر بنعمته . بل هو غير مؤمن بالقضاء والقدر . . إن لله الحكمة البالغة فى إعطاء العباد النعم ــ سواء نعمة الدين أونعمة المال أو نعمة الصحة .

يقول الشاعر :

لا مات أعداؤك بل خلدوا حتى يروا فيكِ الذى يكمد
لا زلت محسودًا على نعمة فإنما الكامل مَن يُحسدُ

إن المؤمن الحقيقى هو الذى يُجاهد نفسه فإن دعته للحسد استغفر الله واستعاذ به من الشيطان الرجيم وأرجع الأمر إلى الله العلى القدير . . .وقد تدفعك نفسك إلى رفض الدواء المرّ ولكن هو سبب للشفاء الحلو . فجاهد نفسك واضرب على غرورها وحارب حسدها للغير واعمل ضد هواك فأحب للناس ما تُحب لنفسك وأقر أن كل شىء بقضاء وقدر . . وأنك لا تدرى الخير لأنه لا يعلمه إلا الله خالق النفوس .

وروى عن الحسن ــ رضى الله عنه ــ مرفوعًا عن النبى ﷺ أنه قال :

« ثلاثة لايخلو منهم المؤمن وله منهن مخرج فمخرجه من الحسد ألاَّ يبغى».

وعلى ذلك فالحاسد الذى لا يظهر حسده . أفضل من الحاسد الباغى الذى يتمنى لغيره الزوال فى نعمته ويفرح إن وقع به ما يُسيئه . . وهناك حسد محمود كما جاء عن رسول الله ﷺ :

« لا حسد إلا فى اثنتين رجل أتاه الله مالاً فهو ينفقه فى سبيل الله ورجل أتاه الله القرآن فهو يتلوه أناء الليل وأطراف النهار » .

والحسن المحمود إنما هو تنافس فى الخير .

---

(١) أخرجه الترمذى ٤/ ٦٦٤ كتاب صفة القيامة وأحمد فى المسند ١/ ١٦٧ .

حُبُ الدنيا
يُميتُ القلوب

الدنيا متاع وخير متاعها زوجــة صالحة ومال من حلال ينفق على الفقراء وفى سبيل الله. إن الدنيا سوق نُصب ثم انفض ربح فيه من ربح وخسر فيه منْ خسر - وهى كسراب تلمع أمام عيون محبيها - يقول الشاعر :

تأمل فى الوجود بعين فكـــــــر
ترى الدنيا الدنيئة كالخيـــــــال
هى الدنيا تقول بِملءِ فيهـــــــا
حذارى حذارى من بطشى وفتـــكى
فلا يغركمُ منى ابتســـــــام
فقولى مضحك والفعل مبكـــــى

والذين يفضلوا الدنيا على الآخرة ـ إنما هم الأخسرون أعمالاً . .

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨ ﴾ .

وهذا الرسول البشيرﷺ يخبرناعن مساوئ حب الدنيا فيقول :

« الدُنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها » .

وفي رواية بزيادة : « إلا ذكر الله وما والاه وعالمٌ ومتعلم » [1] .

---

(١) أخرجه الترمذى وابن ماجة .

ويقول ﷺ :

« مَنْ أحب دنياه أضر بآخرته ومَنْ أحب آخرته أضـر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى » (١) .

وإذا كانت الدنيـا لهو للعقول وعـفلةٌ للقلوب. وظلام للأفئـدة فكيف يركن إليهـا مؤمن عـاقل وهي دار الغرور التى مـا أقبلت إلا وأدبرت ومـا أينعت إلا ونعت وما أضحكت إلا وأبكت . لا أمان له ولا قـرار فيها، زائلة لا محالة . فكيف بالله يتأمل فيها المتأملون أو يطمئن إليها صاحب قلب سليم ؟ !

يقول رسول الله ﷺ :

« إن الدنيا دار مَـنْ لا دار له ومال مَنْ لا مال له ، ولـها يجمع مَنْ لا عَـقل له ، وعليها يُعادى مَنْ لا علم له ، وعليها يُحسد مَنْ لا فقه له ، ولها يسعى مَنْ لا يقين له » (٢) .

حزين أنت يا مَنْ جـعلت من الدنيا لك مـخلدًا وجعلت من شهـواتها ملذًا وركنت إليهـا حتى مرت بك الأيام وأنت لا تدرى ما حـولك ولا تعرف للزهد طريقًا ولا للإخلاص مسلكًـا ، ثم ذهب بك الأجل وجاءك ملك الموت . ظهر منك الندم ولكنه الآن لا يفيد .

يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ (٣) .

يقول رسول الله ﷺ :

---

(١) أخرجه أحمد والبزار والطبرانى والحاكم وصححه .

(٢) أخرجه أحمد والبيهقى فى الشعب .

(٣) المؤمنون : ٩٩ ـ ١٠٠ .

« مَنْ أصبح والدُنيا أكبر همه فليس من الله فى شىء وألزم الله قلبه أربع خصال: همًا لا ينقطع عنه أبدًا ، ومشغلاً لا يتفرغ منه أبدًا ، وفقراً لا يبلغ غناه أبدًا، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبدًا » (١) .

وإذا كنت ــ أخا الإسلام ــ تريد أن تعرف كيف تتعامل مع الدنيا ــ فإنى أقدم لك هذه النصيحة التى بها يجلو قلبك وترقى روحك ويشف فؤادك . . وهى نصيحة غالية يقدمها لنا رسول الله ﷺ .

عن الحسن قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم على أصحابه فقال :

« هل منكم مَنْ يريد أن يُذهب الله عنه العمى ويجعله بصيراً . ألا أنه من رغب فى الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك . ومَنْ زهد فى الدنيا وقصر فيها أمله أعطاه الله علمًا بغير تعلم . وهدى بغير هداية ، ألا أنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى إلا بالفخر والبخل . ولا المحبة إلا باتباع الهوى . ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر وهو يقدر على الغني ، وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز . لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صدّيقًا » (٢) .

أخى المسلم . . تأمل قول الشاعر :

يا خاطب الدنيا إلى نفسها	تنح عن خطبتها تسلم
إن التي تخطب غـــدارة	قريبة العرسُ من المأتم

* والآن مع الإمام على ــ كرم الله وجهه ــ وهو يخطب خطبة عصماء يبين فيها مزبلة الدنيا :

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط .

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب .

يقول الإمام :

« اعلموا أنكم ميتون ومبعوثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزيون بها ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها بالبلاء محفوفة وبالفناء معروفة وبالقدر موصوفة ، وكل ما فيها إلي نازلها وهى بين أهلها دول وسجال ، لا تدوم أحوالها ولا يُسلم من شرها مَنْ نزالها ، بينما أهلها منها فى رخاء وسرور إذا هم منها فى بلاء وغرور ، أحوال مختلفة وتارات منصرفة ، العيش فيها مذموم والرخاء فيها لايدوم وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة . ترميهم بسهامها وتقصيهم بحمامها . وكل حتفه فيها مقدور وحظه فيها موفور . . . واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل ولامَنْ مضى ممن كان أطول منكم أعماراً وأشدُ منكم بطشًا وأعمر دياراً وأبعد آثاراً . فأصبحت أصواتهمُ هامدة خامدة من بعد طول تقلبها وأجسادهم بالية وديارهم على عروشها خاوية وآثارهم عافية . واستبدلوا بالقصور المشيدة والسررُ والنمارق الممهدة . الصخور والأجار المسندة فى القبور اللاطئة الملحدة . فمحلها مقترب وساكنها مغترب بين أهل عمارة موحشين ،وأهل محلة متشاغلين لا مستأنسين بالعمران ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان على ما بينهم من قرب المكان والجوار ودنو الدار » (١) .

إن أفضل الناس منْ جعل من دنياه سبيلاً لأخراه فلا يبيع آخرته بدنياه فيكون غبيًا ولا آخرته بدنيا غيره فيكون أحمقًا . ويقول رسول الله ﷺ « **إن الدنيا ضُربت مثلاً لابن آدم فانظر إلى ما يخرج من ابن آدم وإن قزحه وملحه إلام يصير** » (٢) .

يقول الشاعر :

ألا إنما الدنيا كظل ثنية ... ولا بد يوم أن ظلك زائل

(١) إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ٢٠١ .

(٢) أخرجه الطبرانى وابن حبان .

معنى الزهد فى الدنيا

قد يفهم البعض أننا ننادى بالعزوف عن الدنيا حتى تحيى قلوبنا . . ولكن هذا فهم خاطئ . فلا رهبانية فى الإسلام . . إنما المقصود ألاّ تكون الدنيا بزينتها وزخارفها وشهواتها هى المسيطرة على القلب تجعله يسير حسب هواها ووفقًا لأطماع النفس ورغبات الشيطان . . بل يكون القلب هو السيد الذى يُحرك الجوارح لطاعة الله وللحد من شهوات الدنيا وكبح جماح النفس ورفض هوى الشيطان . . وباختصار أن يعمل القلب لدنياه ودينه بالاعتدال لأن الله أمرنا بذلك . . . يقول الله عز وجل :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (١) .

ومعروف لدينا . . قصة الثلاثة الذين أتوا إلى النبى ﷺ وقدسمعوا بنزول قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ فقالوا : يا رسول الله : نحن نتقي الله . فقال أحدهم إنى أصوم الدهر ولا أفطر . وقال الثانى : أما أنا فأصلى الليل ولا أستريح . وقال الثالث: أما أنا فلا أتزوج النساء . . . فلما سمع النبى ﷺ منهم ذلك غضب وقال لهم : أمَا أني أقربكم إلي الله وأتقاكم له . وأصوم وأفطر ، وأصلى وأستريح ، وأتزوج النساء . وهذه سنتي ومن رغب عن سنتى فليس مني . . لا رهبانية فى الإسلام » . . وبذلك نغلق الباب على المتشددين دُعاة الغلو فى الدين . . ونأخذ بيد المفرطين إلى طريق الاعتدال حتى يعيش القلب بين الأمل والرجاء فى حب واعتدال .

---

(١) القصص : ٧٧ .

ويقول رسول الله ﷺ :

« أوغل فى هذا الدين برفق فلن يُشاد الدين أحداً إلا غلبه » .

فمـرحبًا بالدنيـا التى تُعين على طاعـة الله . وقد قال أميـر الشعراء أحـمد شوقى: « ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا »

ويقول فى شعره :

بالعلم والمال يبنى الناس مجدهم   لا يُبنى مجدٌ على جهل وإقلال

ولم يكن النبي ﷺ عازفًا عن كل أمور الدنـيا أو داعيًا للرهبنة . . بل كان يهتم بملبسه ومجلسه ومعيشته . . فهو يلبس أنظف وأطهر وأجمل الثياب ويهتم بشعر رأسه ولحيته . . حتى أنه كان جالسًا فى يوم من الأيام ودخل عليه شاب منثور الشعر ملابسه رثة . فـقال ﷺ لأصحابه : خذوا عني . . ثم رجع بعد قليل وقد نظم شعر رأسه ونظف ملابسه فـاستقبله ﷺ وهو يبتسم . وقد أمرنا النبى الكريم صلوات الله عليه إذا دخلنا علـى نسائنا أن نكون فى أجمل وأطيب هيئة من النظافة والنظام .

ويقول عبد الله بن عمر ــ رضي الله عنـهما « والله إنى لأتزين لزوجتى كما أحب أن تتزين لى » .

وقد ورد فى الآثار أن بنى إسـرائيل كانوا لا يهتـمون بنظافتهـم ولا بملابسهم واستعبدتهم المادة . فزنت نساؤهم .

وقد كـان رسول الله ﷺ يضع بجوار سـرير نومه : المشط والمـرآة والسواك والطيب وماء الوضوء .

ويقول ﷺ :

« حُبب إلىّ من دنياكم ثلاث : النساء والطيب وقرة عينى فى الصلاة » (١) .

---

(١) أخرجه النسائى والحاكم .

واعلم ـ أخا الإسلام ـ أن طهارة القلب من شـهوات الدنيا من المنجيات إذ تكون للعبد وقـاية من عذاب يوم الدين ـ فقد ورد فى الأخـبار : « إن أعمال العبد تُناضل عنه فإذا جاء العذاب من قـبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه » (١) .

ويقول رسول الله ﷺ :

« مَنْ طلب الدنـيا حلالاً مكـاثراً مفاخـراً لقى الله وهو عليـه غضـبان . . ومنْ طلبها اسـتعفافًا عن المسألـة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالـقمر ليلة البدر» (٢) .

من هذا المنطـلق تعرف أن حب الدنـيا الذى يطغى عـلى القلب بالشـهوات وينسيه ذكـر ربه بالملـذات هـو المذمـوم بل هو الذى يُمرض القلب ويميته أمـا الاعتدال فهو المطلوب . وليست الـرهبنة التي نسمع عنها لدى بعض الطرق ، فإن الإسلام أمر بتأديب النفس وتهذيبها ـ ولم يأمر بتعذيب النفس أو إيلامها .

يقول الإمام أبو حامد الغزالى فى كتاب « إحياء علوم الدين » :

« فهذه هى أعـيان الدنيا . إلا أن لها مع الـعبد علاقتين : عـلاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها وانصراف همه إليها . حتى يصير قلبه كالعبد أو المحب المستهتـر بالدنيا . ويدخل فى هذه العلاقة جـميع صفات القلب المتعـلقة بالدنيا كالكبروالغل والحـسد والرياء والسمعة وسـوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتـفاخر ، وهذه هى الدنيا البـاطنة . وأما الظاهرة فهى الأعـيان التى ذكرناها » أ. هـ .

إن المجاهدة فى الحيـاة أمرٌ مطلوب وتأديب النفس أمرٌ مـحمود ـ ولا بد من محاسبة النفس أولاً بأول .

---

(١) أخرجه الطبرانى .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الشعب .

الغيبةُ سُوسُ القلب

* * * *

إنّه مرض لعين حقير ذلك الذى يدخل إلى القلب عن طريق اللسان ألا وهو « الغيبة » فيخرب بها القلب . فتـقلل فيه الإيمان وتورثه الحقد والخسران وتنسيه ذكر الرحمن . . إذن دخول الغيـبة إلى القلب تتمكن منه شيئًا فشـيئًا مثل فعل السوس فى العظام يقوضها حتى تصبح كالحطام .

وقد جعل الله عـز وجل شروطًا لفلاح قلوب المؤمنـين وهى التى جاءت فى صدر سورة المؤمنين ومنها قوله تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) ﴾ (١) .

والغيبة : هى كما عرفـها رسول الله ﷺ : « ذكرك أخاك بما يكرهه » قالوا: يا رسول الله وإن كان فيه ذلك . قال : « **إن كان فيه فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته** » .

والغيبـة قد تكون : باللفظ وبالغـمز وبالقلم وبالتصـريح وبالتلويح . . . بما يُسئ إلى الآخرين . . ولا شك أن أصحاب الغيبة أصحاب جهالة وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يعرض عنهم . وذلك فى قوله تعالى :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى :

---

(١) المؤمنون : ١ ـ ٤ .

(٢) الأعراف : ١٩٩ .

﴿ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [1] .

الا ترى ـ أخا الإسلام ـ أن الله عز وجل شبه الذين يغتابون إخوانهم بتشبيه فظيع مؤلم ـ كأنهم يأكلون لحومهم أمواتًا ـ يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2]

إن الجالس مع المغتاب المستمع له . أو الساكت المعجب بالحديث شريك فى الاغتياب شأنه شأن المغتاب . . . فإما أن ينهى وإما أن يهجر المكان مُعلنًا عدم رضاه على هذا . . يقول رسول الله ﷺ :

« المستمع أحد المغتابين » [3] .

وقد روى عن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما أن أحدهما قال لصاحبه : إن فلانًا لنئوم . ثم طلبا أدمًا من رسول الله ﷺ : ليأكلا به الخبز . قال ﷺ : «قد ائتدمتما » !! قالا : ما تعلمه ؟ قال : « بلى إنكما أكلتما من لحم أخيكما»[4] .

من هذا المنطلق نعلم أن الغيبة مرض يفتك بالقلب . لذا يجب أن يحتجب عنه المسلم . فلا يفعله ولا يسمعه ولا يُشارك فيه بالسكوت أو الرضا عليه . . . بل المفروض أن نرتفع بأنفسنا فوق كل ذلك لنطهر قلوبنا . . . يقول رسول الله ﷺ :

---

(١) الأنعام : ٦٨ .

(٢) الحجرات : ١٢ .

(٣) أخرجه الطبرانى .

(٤) أخرجه أبو العباس الرغولى فى الأدب وانظر كتاب إحياء علوم الدين جـ ٣ .

« من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق » (١) . إنه لحديث صريح فى إعزاز المؤمـن وعدم كسر خاطره بل الأخذ بيده وتقوية قلبه بالحب والتعاون .

وقال أبو الدرداء ــ رضى الله عنه ــ قال رسول الله ﷺ :

« منْ رد عن عـرض أخيـه بالغـيب كان حـقًا علـى الله أن يرد عن عرضـه يوم القيامة » (٢) .

وجاء أيضًا عـن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَنْ ذب عن عرض أخيـه بالغيب كان حقًا على الله أن يعتقه من النار » (٣) .

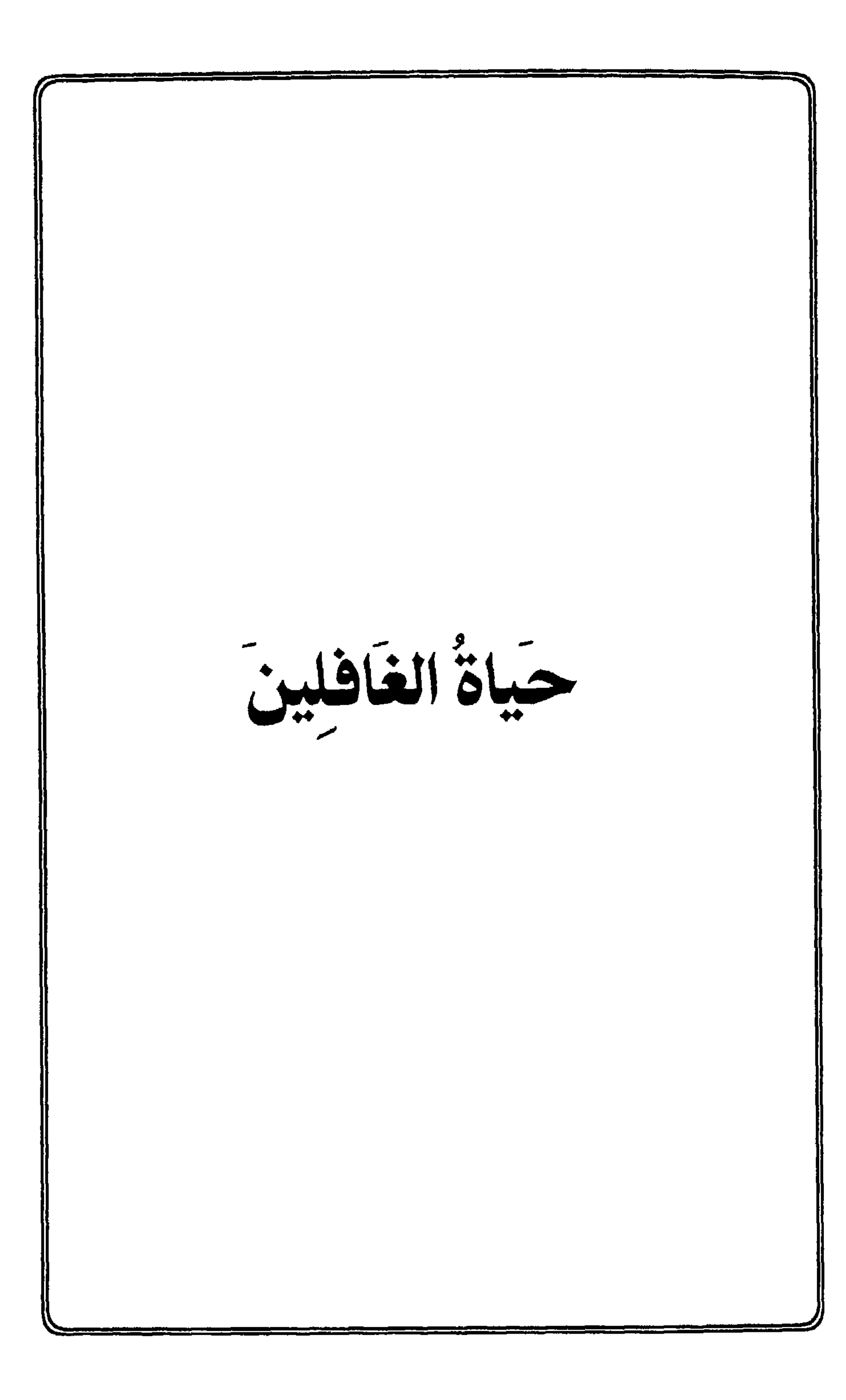
إن على المؤمن أن ينزه نفســه عن الغيبة ويطهر قلبه منهـا ليكون صاحب قلب حىّ . أما الذين ضاع منهم الوازع الدينى فقد ماتت قلوبهم .

* * *

(١) أخرجه الطبراني .

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا .

(٣) أخرجه الطبراني .



حَياةُ الغَافِلينَ



الغافلــون

خلق الله الإنسان فـى أحسن تقويم وأكرمـه بالعقل . واستـخلفه فى الأرض وأمره بإصلاحها وعمارتها . . يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ (1) .

وأمر الله الإنـسان بعبـادته وجعل ذلـك أكبر مـهمة لـه فى الاستخـلاف فى الأرض . وضمن له رزقه وسبّب له الأسباب وأرسل له الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين . . يقول ربنا سبـحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58) ﴾ (2) .

إذن الله خلق الإنسان ورعاه وحماه وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة . . ثم إذا أمره بطاعته عـصاه . . وإذا أمره بذكره نساه . ثم يشكو العبـد لربه مما هو فيه من ضيق وعـسر فى الحيـاة . . وهو لا يدرى أن سبب كل ذلك إعـراضه عن ذكر الله .

يقول الله عز وجل فى الغافلين عن ذكره سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (126) ﴾ (1) .

---

(1) فاطر : ٣٩ .

(٢) الذاريات : ٥٧ ــ ٥٨ .

(٣) طه : ١٢٤ ــ ١٢٦ .

أما الذين سكن الإيمان قلوبهم وعمرت أفئدتـهم بذكر خالقهم فعاشوا فى الدنيا صالحين . . وهم فى الآخرة من الفائزين . فإن الله عز وجل يقول فيهم :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) ﴾ (١) .

الغافلون يعـيشون عيـشة الأنعام يأكلون ويشـربون ويلعبون ويرتعـون ويلههم الأمل لا يستعملون نعم الله فى مواضعـها . . فهم لهم آذان ولكنهم يعطلونها ، ولهم أعين ولكـنهم ينظرون بهـا إلى المحرمات ، ولـهم أجساد عـلى الحرام يغذونها ، أو لا يبـالون من أى مصدر كان غذاؤهم أو كسـوتهم . . إنهم فئة يقضون حياتهم أيـام تمر عليهم لا قيمة لها بل لا قيمـة لحياتهم . . وقد تحدث القرآن الكريم عن هؤلاء يقول الله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (٢) .

* قلوب الغافلين :

أما قلوب هذه الفـئة الضالة الغـافلة التى لا ترى بأعينهـا نعم الله ولا تسمع بآذانها آيات الله ، ولا تقبل بأفـئدتها على ذكر الله . . فإنها فئـة ماتت قلوبها وختم الله عـليها فـأصبحت حـياتهم خسـران . . ضلوا وأضلوا تراهم أحـياء يمشون على الأرض . ولكن حـياتهم تستوى مع مَنْ هم فى القـبور . . يقول الله عز وجل فيهم :

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(٣) .

---

(١) الرعد : ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) الأعراف : ١٧٩ .

(٣) النحل : ١٠٨ .

فهل ترضـى ـ أخى القارئ ـ أن تكون مـن هؤلاء ـ صاحب بصـر أعمى وسمع مُـعطل وقلب خرب ـ لا تـعرف للإيمان لذة ولا ترى نور التـقوي ولا تسعد برضا الله . . . انتبه فإن للدنيا مغرياتها وللحياة شهواتها .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (١) .

يا أصحـاب القلوب الغافـلة أفيقـوا قبل فوات الأوان . واطرودا الدنـيا من قلوبكم . وخذوا منهـا حظكم الذى يعينكم على طاعـة الله . ولا تنسوا فضل الله . بل أكثروا من ذكره . . فالله يقول لكم :

﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) فاطر : ٥ .

(٢) الأعراف : ١٠٥ .

حَياةُ اللهو واللّعبِ

هناك من الناس مَنْ اتخذ إلهه هواه وسيده شيطانه ــ ليس للحياة عنده قيمة وليس للمبادئ أو القيم لديه حرمة أو كرامة . . وهم بذلك ليسوا مجانين ولا أصحاب حالات (مرضية عضوية أو مس من الشيطان) إنما هو العناد وإنكار النعمة والانغماس فى تيار الطمع والخضوع لنزعة الجشع . . . وعندما يتقدم إنسان لينصحهم . أو إلى طريق الخير يرشدهم . أوبنعم الله يذكرهم ــ تراهم من النصح يستهزءون وبغيرهم يسخرون ــ وقد أعمتهم الغفلة باتخاذهم الدنيا لهواً ولعبًا . . وسوف يحاسبهم الله تعالى على ذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (1) .

وقد أراح الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ من هؤلاء الذين يخوضون ويلعبون ويستهزءون فقال الله لنبيه ﷺ :

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (2) .

· ويقول سبحانه وتعالى ــ فيهم أيضًا :

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ (3) .

---

(1) التوبة : ٦٥ .

(2) الذاريات : ٥٦ .

(3) الزخرف : ٨٣ .

إن فئة من العباد رتبوا حياتهم علـى نظام أدمنوه فهم ينامون النهار كُسالى لا يتحركون . . وبالليل ينام الناس وهم يسهرون . . مع الراقصات وفى أحضان الغانيـات . . بين القيل والقال . . بـين صرخات ضحك المجـون ـ وشرب الخمور . . إنها الليالى الحمـراء التى يملؤها الغناء ـ وتمضى بهم الأيام وتـسرع بهم الليالى . . وفجأة يأتى ملك الموت فماذا يقولون ؟

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ﴾ (١) .

ويل لمن تنـسيـهم الدنيا آخـرتهم . . وويل لمـن يجرفـهم حب الشـهوات والانغماس فى السهرات عن السجود لرب الأرض والسموات . . ويل للاهية قلوبهـم . . ويل للذين سـخروا أنفـسهـم لهوى الشـيطان . فـأنساهـم ذكر الرحمن : ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢) .

وقد أوضح لنا الـرسول الكريم ﷺ أن الدنيا دانيـة حقيرة تـستعبـد أصحاب الأهواء وتلعب بعقول السفهاء . . يقول ﷺ لأصحابه :

« أتدرون مَـنِ الأحـمق ؟ قالـوا : الله ورسوله أعلـم قال : مَنْ باع آخرته بدنياه. قال ﷺ : أتدرون مَنِ الأحمق منه ؟ ! قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «مَنْ باع آخرته بدنيا غيره » .

وانظر إلى قول الشاعر :

---

(١) المؤمنون : ٩٩ .

(٢) الطور : ١١ ـ ١٦ .

يا أيـهـا الـغـافل جـد الرحـيل | وأنـت فـى لـهــوٍ وزاد قـلـيـل
لو كـنـت تـدري مـا تـلاقى غـداً | لذبـت من فـرط البكـا والعـويل
فـاخلـص الـتـوبة تحـظى بـهـا | فـمـا بقـى فى العـمـر إلا القليل
ولاتـنـم إن كـنـت ذا غـبـطـة | فـإن قـدامك نـومًـا طـويـل

ويقول شاعر آخر يخاطب أهل الغفلة :

يـا غـاديًـا فـى غـفـلـة ورائحًـا | إلى مـتى تـسـتـحـسـن القـبـائحا
وكم إلـى كم لا تخـاف مـوقـفًـا | يـسـتـنـطـق الله بـه الجـوارحـا
واعـجـبًـا مـنك وأنـت مـبـصـرٌ | كـيف تجـتنب الـطريق الواضـحـا
كـيف تـكون حين تـقـرأ فى غـد | صـحـيـفـة قـد حوت الـفضـائحـا
وكـيف ترضى أن تكـون خاسـراً | يـوم يـفـوز مَـنْ يـكـون رابحًـا
فـاعـمل لميـزانك خـيـراً فـعـسى | يكـون فى يوم الحـسـاب راجـحًـا

ما أعظم النصح الإلهى والإرشاد الربانى ـ الذى يـنبهنا من غفلات الدنيا . فإليك أجمل القول وأبلغ النصح . . ما جاء فى قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(١) .

* * * * *

(١) الحديد: ١٦ .

الغافلون وأم الكبائر

ما وجدت أمرًا خطيرًا على البشرية كالخمر ـ التى هى أم الكبائر كما سماها الرسول الكريم ﷺ حيث قال : « الخمر أم الكبائر » . . ذلك لأنها تُفسد العقول وتُميت القلوب وتهلك الأبدان وتدمر الاقتصاد . . . وهل يرضى بالخمر وآثارها التى ذكرناها الآن إلا الغافلون . . . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا فخسروا دنياهم وآخرتهم ـ عاشوا فى الدنيا أذلاء ويبعثون يوم القيامة تعساء . . إلا مَنْ تاب إلى ربه وأناب وهو فى دنياه . . فإن الله يصلح شأنه . . فإن تاب وعمل صالحًا فإنه يبدل سيئاته حسنات . . يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١) .

وتعالى معى ـ أخى القارئ ـ لنرى فى هذه القصة التى حدثت فى بنى إسرائيل . . ما يصدق عليها : « إن الخمر أم الكبائر » كما قال النبى ﷺ . . . أما القصة فقد كان فى بنى إسرائيل رجل صالح يسير يوميًا من منزله إلى صومعته التى يتعبد فيها . . و كان له أعداء وحُقّاد . . فقالوا لامرأة غانية . . نريدك أن توقعى هذا الشيخ فى كبائر الدنيا . . وسول لها الشيطان فعلتها وبدأت تدبر المكيدة للشيخ النقى . . وكان منزلها فى طريق الشيخ الذى يمر منه كل يوم إلى صومعته للعبادة . . وبينما هو يسير لحقت به ونادت عليه أيها الشيخ أغثنى . . قال لها : ما بك ؟ قالت : تعالى معى فإن فى دارى نارًا سوف تلتهم متاعى فأرجو أن تساعدنى فى إطفائها . . فأسرع معها الشيخ إلى

---

(١) الفرقان : ٧٠ .

داخل الدار فأسرعت هي وأغلقت الأبواب . ولم يكن في الدار نار . . ثم قالت للشيخ : اسمع أمامك، الآن . . طفل رضيع وهو ولدي من الزنا . . وأمامك زجاجة خمر . . وها أنا أمامك عارية . . فإما أن تقتل هذا الطفل وإما أن تشرب الخمر وإما أن تزني بي . . ولم يجد الشيخ مفراً . . فصمت ثم قرر أن أخف هذه المصائب هي زجاجة الخمر . . فشرب الخمر فلعبت برأسه فزنى بالفاجرة ثم قتل الطفل . . كل هذا وهو سكران . . حقًا إن الخمر هي أم الكبائر . . ويقول الحق سبحانه وتعالى في الخمر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ :

« **كل مسكر حرام من شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها لم يتب لم يشربها في الآخرة** » (٢) .

وجاء في صحيح مسلم : « **لعن رسول الله ﷺ الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه** » .

وجاء ـ أيضًا ـ في صحيح مسلم ـ عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ « **إن الله تعالى بعثني رحمة للعالمين وهدى للعالمين وأمرني ربي عز وجل بمحق المعازف والمزامير والأوثان والصُلُب وأمر الجاهلية ـ وحلف ربي عز وجل : بعزتي لا يشرب عبد من عبيدي جرعة من خمر إلا سقيته من الصديد مثلها ولا يتركها من مخافتي إلا سقيته من حياض القدس** » .

* * *

---

(١) المائدة : ٩٠ .

(٢) أخرجه البخاري ١٠/ ٣٠ برقم (٥٥٧٥)، ومسلم ٣/ ١٥٨٧ .

المخدرات مسكرات

لقد حاول أصحاب القلوب المريضة والأنفس الضعيفة التحايل على شرع الله عز وجل وذلك بإيهام بعض الناس أن المخدرات لا تدخل فى مجال التحريم . وأن لهذه المخدرات فوائد عظيمة فهى منبهة ومنشطة ثم تجرءوا فأطلقوا على بعض الخمور مسميات عجيبة حتى يغتر بذلك الجهلاء . ويتناولونها تحت اسم غير اسم الخمور ويزعمون أنها ليست بحرام . يقول رسول الله ﷺ :

« يشرب أناسٌ من أمتى الخمر يسمونها بأسماء غير اسمها » (١) . .

وعن أبى موسى ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ﷺ قال :

« ثلاثة لا يدخلون الجنة ، مدمن خمر ، وقاطع رحم ، ومصدق بالسحر » (٢) .

وقيل لعدى بن حاتم الطائى : مالك لا تشرب الخمر ؟ قال : لا أشرب ما يُفسد عقلى . . وقيل له ما لك لا تشرب النبيذ ؟ قال : معاذ الله أن أصبح حكيم قومى وأمسى سفيههم .

ويقول فضيلة الإمام الشيخ / محمد سيد طنطاوى : « إن عشرات الفتاوى بدار الإفتاء أجمعت على أن المخدرات أشد حرمة من الخمر وذلك لآثارها المدمرة على صحة الإنسان وعقله وماله وعلى الاقتصاد القومى . . وقال : إن العلماء أفتوا بأن مجرد النطق بتحليل المخدرات كفر » (٣) .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه وابن ماجة .

(٢) أخرجه الإمام أحمد .

(٣) جريدة الأخبار الصادرة الأربعاء ٢٩ يونية ١٩٨٨م .

وقال الدميرى فى شرح المنهاج :

« والصواب تحريم بيع الأفيون والتجارة فيه لأنه مسكر مخدر مفسد العقول والأبدان والأديان » .

وقد روى البيهقى عن النبى ﷺ أنه قال :

« أول ما خلق الله عز وجل العقل فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر، فقال عز من قائل : وعزتى وجلالى ما خلقت خلقًا أعز عليّ منك بك آخذ وبك أعطي وبك أحاسب وبك أعاقب » . . فكيف نقبل على عقولنا أن تُفسد وعلى قلوبنا أن تموت وعلى أبداننا أن تهلك ؟ !! واعجبًا للذين يؤخرون التوبة أملاً فى أعمارهم الطويلة . . . والبعض لا يفكر فى التوبة إلا إذا أخذه المرض واشتد به الألم . . يقول الشاعر :

تتوب من الذنوب إذا مرضتا ... وترجع للذنوب إذا برئتا

إذا ما الضرُ مسك أنت باكٍ ... وأخبث ما تكون إذا قويت

فكم من كربة نجاك منها ... وكم كشف البلايا إذا بكيتا

أما تخشى بأن تأتى المنايا ... وأنت على الخطايا قد دهيتا

وتنسى فضل ربٍ جاد لطفًا ... عليك ولا ارعويت ولا خشيتا

وكم عاهدت ثم نقضت عهدًا ... وأنت لكل معروف نسيتا

فدارك قبل نقلك عن ديارك ... إلى قبر إليه قد نعيتا

*** الحشيشة داء القلوب:**

نحذر من رفاق السوء . . وشلل الفساد . . وصحبة الإفساد . . أصحاب السلوك الأعوج الذين يبغون الفساد فى الأرض وينشرون بين شبابنا جراثيم العفن الخلقى . . فتنقل عدوى السلوكيات حيث يزين الشيطان لهؤلاء أعمالهم الشريرة . بأن يحلوا ما حرم الله . . وبأن يصدوا الناس عن ذكر الله .

وأول ادعاءات رفاق السوء فى الآونة الأخيرة ادعاؤهم بأن الحشيشة حلال . . وهذا كذب وإفتراء . . يُراد به تضليل الناس .

وفى هذا المجال يقول الإمام ابن تيمية فى الفتاوى :

« وهذه الحشيشة فإن أول ما بلغنا أنها ظهرت بين المسلمين فى أواخر المائة السادسة وأوائل السابعة حيث ظهرت دولة التتر . وكان ظهورها مع ظهور سيف ـ جنكسخان ـ لما أظهر الناس ما نهاهم الله ورسوله عنه من الذنوب سلط الله عليهم العدو . . وكانت هذه الحشيشة الملعونة من أعظم المنكرات وهى شرٌ من الشراب المسكر من بعض الوجوه والشراب المسكر شرٌ منها من وجه آخر . . فإنها مع أنها تسكر آكلها حتى يبقى مسطولا تورث التخنيث [1] والديوثة [2] وتفسد المزاج فتجعل الكبير كالسفنجة وتوجب كثرة الأكل وتورث الجنون وكثير من الناس صار مجنونًا بسبب أكلها . . ومن الناس مَنْ يقول إنها تغير العقل فلا تسكر كالبنج . . وليس كذلك بل تورث نشوة ولذة وطربًا كالخمر . . وهذا هو الداعى إلى تناولها وقليلها يدعو إلي كثيرها كالشراب المسكر والمعتاد لها يصعب عليه فطامه عنها أكثر من الخمر فضررها من بعض الوجوه أعظم من الخمر . . فمن سكر من شراب أو حشيشة مسكرة لم يحل له قربان المسجد حتى يصحوا ولا تصح صلاته حتى يعلم ما يقول . ولا بد أن يغسل فمه ويديه وثيابه فى هذا وهذا . . والصلاة فرض عليه لكن لا تقبل منه حتى يتوب أربعين يومًا كما قال النبى ﷺ :

« مَنْ شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يومًا فإن تاب تاب الله عليه . فإن عاد فشربها كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال . . قيل : وما طينة الخبال؟ قال : عصارة أهل النار أو عرق أهل النار . . » .

---

(١) الرجل الخنث : هو الذى يشبه النساء فى تصرفاته ويموت قلبه عن الشهامة والشجاعة .

(٢) الديوث الرجل الذى لا يغار على أهله .

وأما قول القائل إن هذه ما فيها آية ولا حديث فهذا من جهله فإن القرآن والحديث فيهما كلمات جامعة هى قواعد عامة وقضايا كلية تتناول كل ما دخل فيها وكل ما دخل فيها فهو مذكور فى القرآن والحديث باسمه العام وإلا فلا يمكن ذكر كل شيء باسمه الخاص فإن الله بعث محمداً ﷺ إلى جميع الخلق وقال :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى: ﴿ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .

فاسم الناس والعالمين يدخل فيه العرب وغير العرب من الفرس والروم والحضر والبربر . . فلو قال قائل إن محمداً ﷺ ما أرسل إلى الترك والهند والبربر لأن الله لم يذكرهم فى القرآن كان جاهلاً كما لو قال : إن الله لم يرسله إلى بنى تميم وبنى أسد وبنى غطفان وغير ذلك من قبائل العرب ، فإن الله لم يذكر هذه القبائل بأسمائها الخاصة . وكما لو قال : إن الله لم يرسل إلى أبى جهل وعتبة وشيبة وغيرهم من قريش لأن الله لم يذكرهم بأسمائهم الخاصة فى القرآن . . وكذلك لما قال : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ (٥) . دخل فى الميسر الذى لم تعرفه العرب ولم يعرفه النبى ﷺ وكل الميسر حرام باتفاق المسلمين وإن لم يعرفه النبى ﷺ

(١) الأعراف : ١٥٨ .

(٢) سبأ : ٢٨ .

(٣) الفرقان : ٢.

(٤) الأنبياء : ١٠٧ .

(٥) المائدة : ٩٠ .

كاللعب بالشطرنج وغيره بالعوض فإنه حرام بإجماع المسلمين . وهو الميسر الذى حرمه الله ولم يكن على عهد النبى ﷺ . أ . هـ .

فيا أصحاب القلوب المؤمنة احذروا هذه الآفات التى إن عرفت طريقها لقلوبكم أصابتها العلل التى تؤدى إلى هلاكها . . . فاحذروا الأوبئة الاجتماعية التي سرعان ما تنقل من أسرة إلى أسرة .

* * *

ظلمات القلوب

قلب المؤمن يُضـاء بالإيمان ويتلألأ بتـقوى الرحمن ويطمـئن بذكره سبـحانه وتعالىَ . . وكلما كثـر ذكر الله فى القلب كلما كان نقيًا شـفافًا كالزجاج . . يتأثر ويتأثر . . سـريع الاتصال بخالقه سبحانه . . يـخشع فى دعائه ويرحم غيره و تأخذه الخشية عند سماع القرآن الكريم . . فهو قلب وضّاءٌ براقٌ .

أما قلب المذنب الذى يصر على الذنوب ويكثر منها ويتمتع بها . فإن السواد يكثر فيه حتي يـصير قلبًا مظلمًا . جاحدًا جامدًا لا رحـمة فيه ولا خشوع . . قلوب كـالحـجارة أو أشـد قسـوة ـ وهـذا هو الران الذى يحـيل القـلب إلى أوعيةخَرِبةٍ لهـوى النفس وتسير حسب أمر الشيطان . . وهـناك كثير من الآثام التى تظلم القلوب فتورثها القسوة وتضع عليها الغشاوة . . ومن ذلك :

* ظلم الآخرين .
* آلات اللهو ومزامير الشيطان .
* حب الشهوات .
* إغفال الأذكار .
* تضييع الفرائض .
* رفاق السوء .
* المال الحرام .
* عشق القلب للنساء .
* أفعال الجاهلية .
* عدم تذكر الموت .

* الانشغال بأعمال السحر .
* عقوق الوالدين .
* الربا .
* الكذب وشهادة الزور .
* خيانة الأمانة .
* الإساءة للجيران .
* هجر القرآن وإهمال السنة .
* التطفيف فى الكيل والميزان .
* النفاق .
* السرقة .
* الزنا ومقدماته أو ما يقرب إليه .
* الغيبة والنميمة وتتبع عورات الناس .
* الخمر والميسر .
* المجاهرة بالمعاصى .
* قذف المحصنات الغافلات .

فاحذر ــ أخى القارئ ــ كل ذلك وما يقرب إليه أو يدعُ إليه . . واعلم أننا لو تناولنا كل ذلك بالشرح والتفصيل لبيان أثره على قلب الإنسان لطال الحديث . . ولكن أرانى مشدودًا إلى الحديث عن الظلم . . الذى يُطبق على القلب فتغيب منه الشفافية ويكثر به القسوة والغلظة . . وأظلم الناس منْ ظلم نفسه . . وذلك بالإشراك بالخالق سبحانه وتعالى . . ولذا نجد لقمان عليه السلام يعظ ولده . . ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) وكذلك القلب الذى لا يخاف الله فيتجرأ على الاعتداء على الغير ولا يحترم حدود الله إن ذلك ظلمٌ بين . . يقول الله عز وجل :

(١) لقمان : ١٣ .

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ (١) .

أما ظلم الغير فهذه مصيبة كبري لا يدرك أثرها إلا أصحاب القلوب العامرة . . لأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب . . وقد قال الله عز وجل في الحديث القدسي الجليل :

« يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا » . .
وقد يعيش القلب الظالم في غطرسة الخلد التى يمنيه الشيطان بها ويظن أن الله ليس بمطلعٍ عليه . . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

هل يتذكر أصحاب القلوب الظالمة أن الموت ليس براحة لهم ولكنه الموت الذي بعده الحساب والعقاب . . فالظالم فى الدنيا شقى وفى الآخرة شقى . . يقول الشاعر :

ولو أنا إذا متنا تركنا	لكان الموت راحة كل حى
ولكنا إذا متنا بعثنا	ونُسْأَلُ بعده عن كل شىء
ونُصلى حر نارٍ إن عصينا	وإلا نحظ بالعيش الرخى

وانظر إلى قول الله عز وجل :

﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (٣) .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« مَنْ اقتطع حق امرئٍ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة ،

---

(١) الطلاق : ١ .

(٢) إبراهيم : ٤٢ .

(٣) غافر : ١٨ .

قال رجل وإن كان شيئًا يسيراً يا رسول الله قال: وإن كان قضيبًا من أراك »(١).

وروى البيـهقى عن أبـى سلمة عن أبي هـريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه سـمع رجلاً يقول :إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، فقال أبو هريرة : كذب والذى نفسى بيده إن الحبارى لتموت هزالاً من خـطايا بنى آدم . يعنى إذا كثرت الخطايا منع الله تعالى القطر عن أهل الأرض وإنما يصيب الطـير من الحب والثمر على قدر القطر » .

*هل من مخرج ؟

ولكن هل هناك من مـخرجٍ من هذه الظلمات التى تـضع الرّان على القلب فتـصيـبه بـالأمراض التى قـد تؤدى إلى هلاكـه ؟ . . نقـول : نعم . . لأن رحمةالله واسعة وفضله عظـيم وباب التوبة مـفتوح . . فإن سارع العبد بالتوبة النصوح والاستغفار من ذنبه والرجـوع إلى ربه . . يكون قد أنقذ نفسه من هذا الهلاك . . والله عز وجل يقول :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٣) .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

---

(١) أخرجه مسلم ١/ ١٢٢ فى الإيمان .

(٢) آل عمران : ١٣٥ .

(٣) النساء : ١١٠ .

(٤) المائدة : ٣٩ .

هذا هو المخرج وهو الفرصة التى امتن الله بها على عباده . . فما أجمل الإسراع بالتوبة النصوح التى تُتَوَّجُ بفعل الصالحات .

*** قلوب سليمةٌ وقلوب مُفلسة :**

إنه حال القلوب فى الدنيا التى تنظر مكانتها فى الآخرة . . فلا تستوى قلوب الذاكرين مع قلوب الغافلين . . ولا تستوى قلوب أضاءها العدل مع قلوب أظلمها الجور . . لا تستوي قلوب شُغلت بذكر الله مع قلوب أكلها الحقد والحسد . . لا تستوى قلوب ترتقى كل يوم بتقوي الله والمسارعة فى الخيرات مع قلوب رنت عليه الذنوب وأخذتها شهوات الدنيا وأسرفت فى زينتها حتى نسيت حق ربها وحق العباد . . وفى هذه القلوب يحدثنا القرآن الكريم . . يقول الله عز وجل :

﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ (١) .

ويقول الله عز وجل :

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ (٢) .

وحتى تظل القلوب ذاكرة خاشعة يتلألأ فيها نور الإيمان . . كان فضل الله عظيمًا على الإنسان الذى يعود إلى ربه فيقبله بل ويبدل سيئاته حسنات . . والله عز وجل يقول :

﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ ﴾ (٣)

ثم تأتى الآيات فى نفس السياق وفى نفس السورة ــ تستحث القلوب على

---

(١) الشعراء : ٨٨ ــ ٨٩ .

(٢) الصافات : ٨٣ ــ ٨٤.

(٣) ق : ٣٢ ــ ٣٤ .

اليقظة وإدراك الفرصة (فرصة التوبة) قبل فوات الأوان .. يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

وهناك من القلوب من تأتى يوم القيامة مفلسة لا رصيد لها عند ربها .. لأنها أضاعت حياتها وفجأة يأتيها الموت .

جاء فى صحيح مسلم ــ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **أتدرون مَنِ المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا مَنْ لا درهم له ولا متاع .. فقال : إن المفلس من أمتى مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا وضرب هذا . فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته . فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طُرِح في النار** » .

وأن أناسًا يدخلون النار مع أنهم كانوا يصلون ويصومون ويزكون ويحجون .. فيقول الرسول ﷺ متعجبًا ـ ما لهؤلاء فيقال : إنهم كانوا يصلون كما يصلى الناس ويصومون كما يصوم الناس ويزكون كما يزكى الناس ويحجون كما يحج الناس إلا أنهم كانوا إذا عُرِض عليهم شىء من الحرام أخذوه فأحبط الله أعمالهم .

نحن الآن فى دار الابتلاء والاختبار ــ فى دار العمل . فى الدنيا التى غدًا سوف تولى عنا وتعطينا ظهرها ويبقى العبد أمام ربه فلينظر كيف يلقاه ؟

* * *

---

(١) ق : ٣٧ .



إحياء القلوب

* الإيمان .

* الخشوع .

* التقوى .

* الدعاء .



الإيمان

الإيمان بالله هو الأساس الذى تُبنى عليه قواعد الإسلام ومعرفة أمور الدين .. إذ أن مَنْ لا إيمان عنده لا فائدة في عمله . . بل لا قيمة لحياته . .

لقد أرسل الله الأنبياء والمرسلين يدعون الناس إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له . . يقول رسول الله ﷺ : « **أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله** » وهذا واضح جلىٌ فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (١)

وإن أول ما يُلفت الله عز وجل نظر الإنسان إليه ليدعوه للإيمان به . أن ينظر الإنسان فى نفسه . ليعرف منْ الذى خلقه ؟ ومن الذى يحييه ؟ ومَنِ الذى يرزقه ؟ مَنِ الذي يحرك قلبه ؟ أليس هو الله . . الذي يقول فى محكم التنزيل :

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

ويقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ (٣) .

وقوله سبحانه وتعالى :

---

(١) البينة : ٥ .

(٢) الذاريات : ٢١ .

(٣) الانفطار : ٨ .

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ (١) .

ثم يلفت نظر القلوب الثاقبة المفكرة المتدبرة إلى ما فى الكون حتى يعمق الإيمان فيها بل ويقويه ويزينه . . فيقول لنا سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

ثم يُلفت الله أبصار القلوب إلى الكون وبديع صنعته وما فيه من آيات لأولى الألباب . فيقول سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ (٤) .

---

(١) البلد : ١٠ .

(٢) النبأ : ٦ ــ ١٦ .

(٣) البقرة : ١٦٤ .

(٤) نوح : ١٥ ــ ١٨ .

واعلم ـــ أخا الإسلام ـ أن الإيمان يـزيد وينقـص فى قلب الـعبـد بفـعل الطاعات يزيد، وبالمعاصى ينقص يقول الله عز وجل : ﴿ فزادهم إيمانًا ﴾ ويقول سبحانه : ﴿ ليزدادوا إيمانًـا مع إيمانهم ﴾ وعلى ذلك فإن القلب الـذى يقل فيه الإيمان يصبح قلبًا مريضًا يحتاج إلى عناية ومراقبة حتى يفيق ويصحو ـ فإن تُرك وأهملَ ازداد مرضًا ونقص نوره حتى ينطفئ وقـد يموت ـ فيطبع الله عليه ـ فلا يدرك من لذة الإيمان شىء يعيش كالبهائم تأكل وترتع .

* * *

الخشوع

إذا كان لكل شىء روح فروح العبادة الخشوع وأهم العبادات الصلاة . . التى يقول الله عز وجل فيها : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝﴾ (١) ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه .

إن الخشوع سكينة فى القلب لا يحس بها إلا القلب الحى النابض بذكر الله المتلألأ بتقواه . . ويا سبحان الله . . كيف أن بعض قلوب البشر تقسو وتتحجر حتى أنها بالقرآن لا تتأثر . . والله عز وجل يقول :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

إن الصلاة بما تحتويه من ذكر ودعاء وركوع وسجود لتجعل القلب لربه خاشعًا ، والعقل فى نعم ربه متدبرًا . . فلا صلاة بدون خشوع ولا سجود بدون تواضع . . فإن أردت أن يحيا قلبك فاجعله بذكر الله مطمئنًا ولعظمته متواضعًا وبين يديه خاشعًا . . . والله عز وجل يذكر القلوب بالخشوع لذكره سبحانه فيقول :

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(٣).

---

(١) المؤمنون : ١ ـ ٢ .

(٢) الحشر : ٢١ .

(٣) الحديد : ١٦ .

نعوذ بالله من القلوب القاسية التى لا تسمع إلا نداء شهواتها ولا تخضع إلا للذات بطونها . . فى نهــارها للحرام عاشقة وفى ليلها على عــباد الله ناقمة . . إنها قلوب لنعم الله جاحدة .

وقد امتدح الله أصــحاب القلوب الواعية والأفئدة المتواضــعة . . وقد جاءت صفات المؤمنين للذكور والإناث فى قوله تعالى ــ الذى به يذكر القلوب :

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١) .

إنها صــفات بها تصــفو القلوب وترقى بهــا الأرواح والمحافظ عليهــا بصدق وإخلاص ينــال رضا الله . بل تتوج حــياته بالمغــفرة ويمنح الأجر الــعظيم فى الآخرة . . نعم إن نور اليقين فى القلوب يزينها وتقوي الله تزودها .

* * *

---

(١) الأحزاب : ٣٥ .

التقوى زاد القلوب

ما الإيمان فى قلوب المؤمنين إلا شجرة تُروى وتتزود بتقوى الله . . والتقوى نور للبصائر وهداية للبصر . . والقلوب التى لا تعرف تقوى ربها قلوب مستذلة بشهوات الدنيا محرومة من خير الآخرة . . . ولا يدرك عظمة وقيمة تقوى الله إلا أصحاب العقول الناضجة والأنفس الزكية . . يقول الله عز وجل:

﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴾ (١)

وإذا كانت التقوى باب اليقين للقلوب فهى مفتاح العلم للأفئدة . فكلما زادت تقوى القلب كلما زاد علمه ونقص جهله . . يقول الله عز وجل :

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وعلى قلوب المؤمنين التي رضى الله عنها فعمق فيها الإيمان به وزودها بتقواها وجعلها من المسارعين فى الخيرات أن تحافظ على ذلك حتي تلقى الله عز وجل. لأنه سبحانه وتعالى يخاطبها بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٣) .

إن تقوى القلوب لا تتوقف عند مجرد الخوف من الله والخشية من عظمته والبُعد عن المحرمات والوقوف على حدوده . ولكنها تنتقل إلى الجانب الإيجابى فى حياة المسلم فتدفعه إلى الخير بل إلى التنافس فى إصلاح ذات البين

---

(١) البقرة : ١٩٧ .

(٢) البقرة : ٢٨٢ .

(٣) آل عمران : ١٠٢.

ودعوة الآخرين إلى التعاون والحب ومساعدة الضعفاء . . أليس فى كل ذلك حياة للقلوب ؟ . . . والله سبحانه يقول :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١) .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢) .

وسُئل الإمام على ــ كرم الله وجهه ــ عن التقوى فقال :

« التقوى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل » .

ولتعلم القلوب أن تقواها لله نور لها فى حياتها وزاد لها عند ربها . . . فبالتقوى يخفف الله على العبد سكرات الموت ، وبالتقوى ييسر الله لك أمور دنياك ويفهمك دينك فالله يقول :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (٣) .

وفى تأمين العبد من فزع الآخرة يقول الحق لعباده :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (٤) .

فهل تستوى قلوب تلقى الله مستبشرة بعملها سعيدة بلقاء ربها مع قلوب عاشت فى العصيان وطغى عليها الرّان حتى صدأت كما يصدأ الحديد. . .إن الله

---

(١) آل عمران : ١٣٣ .

(٢) الأنفال : ١ .

(٣) الطلاق : ١ــ ٢.

(٤) الحج : ١ .

أعد لأهل التقوي خيراً فى الآخرة وبشرهم به فى دنياهم . . . يقول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) ﴾[1] .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (55) ﴾ [2] .

لقد جاء الرباط فى القرآن الكريم بين الصدق والتقوى . . وبين العمل الصالح والتقوى . . وبين الوفاء والتقوي . . وبين حب الله وطاعة رسوله والتقوي . . وبين النجاة من أزمات الدنيا والتقوى . وبين حسن التوكل على الله والتقوى . . وبين المسارعة للخيرات والتقوى . . فكأن التقوى هي روح كل القيم والمبادئ . روح الخير والحب بل روح تسرى فى القلوب لتعيد إليها الحياة بعد الموت . والتذكر بعد الغفلة . والرضا بعد السخط . والحب بعد العداوة . . حقًا إن التقوي شريان حياة القلوب .

* * *

(١) الذاريات : ١٥ ــ ١٨ .

(٢) القمر : ٥٤ .

الدعاء حياة القلوب

الدعاء أساس كل عبادة ـ لأن فيه التوجه إلى المعبود سبحانه والخشوع له والتذلل بين يديه . . ولذا كان القول : إن الدعاء مخ العبادة . . وقد عرف العلماء الصلاة بأنها : أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم .

والدعاء مخرج القلوب من الأزمات وطريقها للخروج من المشكلات ـ وبه تتنزل السكينة وتتنزل الرحمات . . من رب الأرض والسموات . . مجيب دعاء المضطرين وكاشف الضر عن البائسين . . وهناك مغزى كبير يحمله الدعاء وهو أن الداعى يعترف بقدرة الله ويقر بعجز نفسه أمامه سبحانه وتعالى . . وفى ذلك أكبر وأعظم مظهر من مظاهر العبودية .

ومن كرم الله عز وجل أنه يُحب أن يدعوه عبده ويغضب إن ترك الدعاء . . وخاصة فى المحن والأزمات ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

ويقول الله عز وجل :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) الأنعام : ٤٣ .

(٢) غافر : ٦٠ .

ويقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (١) .

وإلى القلوب التي تنشد الدعاء نقول : أكثروا من الدعاء فقد ورد أن الدعاء والبلاء فى كبد السماء يعتلكان فإما أن يلطف الله فى القضاء وإما أن يرفع البلاء .

فليكن قلب المؤمن فى الدعاء موقنًا بالقبول غير متردد أو متشكك لأن فضل الله واسع . . ولأنه ورد أن الله عز وجل يستحى أن يرد يدى عبدٍ مؤمن رفعهما بالدعاء . . ويقول رسول الله ﷺ :

« لا ينبغى لأحدكم أن يقول : اللهم اغفر لي إن شئت ولكن يجزم ويقول : اللهم اغفر لى » .

ورحمة الله واسعة . . والطمع فيما عند الله ليس بحرج ولكنه طلبًا من الكريم الذي لا تنفد خزائنه . . ،الله عز وجل يقول فى الحديث القدسى الجليل : **« يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وقفوا فى صعيدٍ واحد وسألونى فأعطيت كلاً مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيئًا »** . . .

ويقول سبحانه فى حديث قدسى آخر :

« عبدى اشغل قلبك بذكرى أملؤه غنى وأسدُّ فقرك » .

وكيف لا تحى القلوب بالدعاء إلى الله . . وهو سبحانه ــ كما ورد ــ ينزل إلى السماء الدنيا ليلاً فينادى هل من مسيءٍ بالنهار فأغفر له . . وينزل بالنهار فينادى هل من مسيءٍ بالليل فأغفر له » (٢) .

---

(١) البقرة : ١٨٦ .

(٢) قيل : إن نزول الله معناه نزول ملائكة الدعاء والرحمة .

ويقول رسول الله ﷺ :

« دعوة المسلم لا تُرد إلا لإحدى ثلاث ــ ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ــ إما أن يُعمل له فى الدنيا وإما أن يُدخَر له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء بقدر ما دعا » ...

أخى المسلم . . عليك أن تأخذ بالأسباب فى الدعاء فإن هناك من الأمور ما يجب مراعاتها من ذلك :

* أن يكون مطعمك حلالاً ومشربك حلالاً وملبسك حلالاً . . لأن سعد ابن أبى وقاص ذهب للنبى ﷺ وقال له : يا رسول الله ادع الله لى أن أكون مستجاب الدعوة . . قال له ﷺ : « يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة» .

* الدعاء بخير : بمعنى ألا تدعو بشرٍ أبدًا حتى يقبل الله منك .

* أن تتحرى ــ مواطن الدعاء فى الزمان والمكان فهناك أماكن طاهرة وأوقات مباركة .

فالدعاء فى المسجد الحرام أو المسجد الأقصى أو مسجد رسول الله ﷺ ليس كالدعاء فى أماكن أخرى . . وكذلك الدعاء على عرفات ويوم عرفة وليلة القدر ووقت الشدة . . ووقت السحر ــ الثلث الأخير من الليل ــ والدعاء فى العشر الأواخر من رمضان . والدعاء بعد ختم القرآن . . وكذلك الدعاُء يرتبط بالداعى وقوة إيمانه وصدق علاقته مع ربه .

وعن أنس قال : أصاب الناس سنة [١] على عهد رسول الله ﷺ بينما رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة . قام أعرابى فقال : يا رسول الله : هلك

---

(١) السنة : القحط .

المال وجـاع العيـال فادع الله لنا ، فـرفع يديه ومـا نرى فى السـماء قـزعة [1] فوالذى نفسى بيده ، مـا وضعها حتي ثار السحاب أمـثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره، حـتى رأيت المطر يتمادر على لحـيته ، فمطرنا يومـنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد حتى يوم الجمعة الأخرى » .

وقد شـرعت صلاة الاسـتقسـاء وهى صلاة فـيها الـدعاء والتضـرع إلى الله والاعتراف بالذنب والاستغفار وتفويض الأمر لله عز وجل .

* * *

(٢) القزعة : السحابة .

الدعاء للقلوب نور

لقد اختص الله عز وجل كل نبى بدعاء . . وكـان دعاء نبينا محمد ﷺ هو ما جاء فى القرآن الكريم فى قوله تعالى:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيراً ﴾ (١) .

ولعلك تـري ما فى هذا الدعـاء من تضـرع القلب لربه ليـنزل عليه سـكينة ويهديه سواء السبيل ويجعله على الحق واليقين ويلزمه سلطانًا نصيراً .

وكان النبى ﷺ يقول :

« ما أصاب عبـداً قط همٌّ أو حزن فقال : اللهم إنى عبـدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيـتى بيدك ، ماضٍ فى حكمك ، عدلٌ فىَّ قضـاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نـفسك ، أو استأثرت به فى علم الغيـب عندك أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلبى ، ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى . إلا أذهب الله همه ، وأبدله مكان حزنه فرحًا » (٢) .

ويقـول رسول الله ﷺ : « مَنْ قرأ آيـة الكرسى وخواتيـم سورة البقـرة عند الكرب أغاثه الله تعالى » (٣) .

وكان ــ صلوات الله وسلامه عليـه ــ يقول : إذا خرج إلى الصلاة : « بسم

---

(١) الإسراء : ٨٠ .

(٢) رواه أحمد والطبرانى عن ابن مسعود .

(٣) رواه ابن السنى عن أبى قتادة .

الله ، آمنت بالله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم بحق السائلين عليك ، وبحق مخرجي هذا ، فإني لم أخرجه أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعة ، خرجت إتغاء مرضاتك ، واتقاء سخطك ، أن تعيذني من النار وتدخلني الجنة»(١) .

وكان ﷺ إذا دخل المسجد يقول : « اللهم اغفر لى ، وافتح لى أبواب رحمتك » (٢) .

ويقول ﷺ:

« إذا سمعتم المؤذن قولوا مثل ما يقول وصلوا عليّ فإنه مَنْ صلى عليّ مرةً صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا لى الوسيلة فإنها أعلى منزلة في الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة» (١) .

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت : سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت وهو مسند إلى ظهره يقول :

« اللهم اغفر لى وارحمنى وألحقنى بالرفيق الأعلى » (٢) .

إن الدعاء ليمد القلب المؤمن بفيوضات إلهية ورحمات ربانية تجعله فى سعادة غامرة وفى ذكر دائم . . تجعله قلبًا بالحب يفيض ويعطى الحنان ويتلألأ فيه نور الإيمان . . أسأل الله أن ينير قلوبنا وأبصارنا وأن يشرح صدورنا . إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

* * *

---

(١) أخرجه الدارقطنى فى الإفراد .

(٢) رواه أحمد فى المسند (٦/ ٢٨٢) والترمذى رقم (٣١٤) .

خاتمة

الحمد لله رب العالمين . . الكبير المتعال . . الذى بيده مقاليد السموات والأرض. وسبحان مَنْ يقلب القلوب كيف يشاء . ويعلم منها سرها وجهرها.

ونصلى ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد . .

فقد وفقنى الله عز وجل على إتمام هذا العمل المبارك والذى كان لى شرف الكتابة فيه . . وقد تناولنا فيه أهم ما فى الإنسان ــ الذى هو خليفة الله فى الأرض ــ تناولنا القلب . . والقلب يتناوله الأطباء من نواحيه العضوية . من آلام وأمراض . . أما نحن فقد تناولناه من الناحية المعنوية . . من ناحية الإيمان الذى به تحيي القلوب . . ومن ناحية التقوى التى بها تتزود الأفئدة .

وذكر داء القلوب الذى يمرضها وبعض الأحيان يُهلكها ــ مثل الكذب ، والنفاق ، والرياء ، والخمر ، وما إلى ذلك من أمراض فتّاكة قتّالة . .

وذكرنا أيضًا كيفية الخروج من ذلك كله وأهم باب فى الخروج هو التوبة النصوح التى يتبعها العمل الصالح . .

كما تناولنا إتمامًا للمعرفة حياة الغافلين ، الذين جعلوا الحياة الدنيا لهوًا ولعبًا وغرتهم الأمانى وأغراهم الشيطان بالخلد فى الدنيا وخذلهم فى الأخرة . بل تبرأ منهم . .

إنهم الضعفاء إيمانًا ، المرضى قلوبًا ، الخاوية من ذكر الله أفئدتهم . . ثم تناولنا إحياء القلوب وأول ذلك الإيمان ، والذكر ، والتقوي . .

ونحمد الله أن وفقنا لهذا العمل المتواضع الذى نسأل الله عز وجل أن يتقبله خالصًا لوجهه الكريم . .

هذا وبالله التوفيق ،

محمد الصايم

القاهرة ــ المعادى الجديدة ــ صقر قريش

عمارة ١٩٥

فهرس الكتاب

الصفحة

تم بحمد الله



هــــذا الكتـــــاب

- الكتاب شـامل لوصف موضوعـى لأمراض القلوب التى تتعاقب من كثرة الذنوب.
- إهمـال القلوب الغافلة الذى يؤدى إلى مـوتها فـتعـيش لنفسها لا ترى غيرها ولا تتذكر ربها.
- كتابنا به مفاتيـح التوبة وشروطها وكيفية تحقـيقها. وكذا علاج القلب العليل.
- الطهارة -والدعـاء- والذكر والاستغـفار سلوك لابد من تطبيقه لإخراج القلب الغافل من عالم الظلمات إلى نور الهدى.
- فى الكتاب بيـان لمضار الشهـوات والإسراف فى الملذات وأثر كل ذلك على حياة القلوب المؤمنة.
- كتابنا تحـذير هام لهؤلاء الذين أخذتهم الدنيا واستـحوذ عليهم الشيطان ونسوا ذكر الرحمن.
- الكتاب لا غنى لأى بيت مـسلم عنه لأنه هداية للنفوس ومنارة للقلوب.

المكتبة التوفيقية

أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين

ت: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠